مجلة أنثروبولوجيا ISSN: 2437-041X
مجلد: **09** عدد: **01** السنة **2023** E-ISSN:2588-2325

# الدور المتوقع للأبحاث الأنثروبولوجية في حقل التنمية في السودان: قراءة في رؤى إيان كنيسون (Ian G. Cunnison)

# The Anticipated Role of Anthropological Research in the Field of Development in Sudan: A Perusal of Ian G. Cunnison's Views

عثمان محمد عثمان علي*، جامعة السلطان قابوس، مسقط، osmanali@squ.edu.om

تاريخ الإرسال: 2022/12/11 تاريخ القبول: 2023/06/07 تاريخ الإرسال: 2023/06/30

**ملخص:**

موضوع هذه الورقة هو رؤى "إيان جورج كنيسون"[1] حول الدور المتوقع للأنثروبولوجيا في عملية التنمية في السودان وغيره من البلدان النامية، والعلاقة بين علماء الأنثروبولوجيا والإداريين في هذا الخصوص. تبرز هذه الرؤى في مقالات ثلاث كتبها في فترة عمله بجامعة الخرطوم. والورقة تستخدم صلاته بالأنثروبولوجيين المهتمين بالسودان، وسيرته الذاتية، وتجربته البحثية، واهتماماته النظرية في فهم آرؤاه في هذه المقالات. وهي تنظر إليه كأحد الباحثين المحترفين الذين كانوا جزءًا من توظيف الأنثروبولوجيا لأغراض الحكم، والتي بدأت في السودان عام 1909 كدعوات من الحكومة الاستعمارية إلى هؤلاء الباحثين لإجراء أبحاث على بعض القبائل. وتبيّن الورقة كيف أن نمط الأبحاث الأنثروبولوجية المهنية، الذي ساد في تلك الفترة، تغير مع قدوم كنيسون إلى السودان، وبذلك تكشف نقاط التحول الرئيسية في تطور الأبحاث الأنثروبولوجية في السودان.

**الكلمات المفتاحية:** تنمية، أبحاث، الأنثروبولوجيا، عالم أنثروبولوجيا، إدارة.

* المؤلف المرسل

**Abstract:**

This paper addresses Ian George Cunnison's views on the anticipated role of anthropology in the economic development in Sudan and other developing countries and the relationship between anthropologists and administrators in this regard. These views feature in three articles he wrote during his tenure at Khartoum University. The paper uses his links to other Sudanist anthropologists and his biography, research experience, and theoretical interests in understanding his views in these articles. It considers him as one of the professional researchers who were part of the utilization of anthropology for governance purposes, which began in Sudan in 1909 as invitations by the colonial government to these researchers to conduct research on some tribes. The paper shows how the pattern of professional anthropological research, which prevailed in that period, changed with the arrival of Cunnison to Sudan and thus detects the main turning points in the development of anthropological research in Sudan.

**Keywords**: development, research, anthropology, anthropologist, administration.

**مقدمة:**

اتخذت الأعمال البحثية الأنثروبولوجية في البلدان النامية مسارًا مختلفًا بعد استقلالها السياسي، عما كان في الفترة السابقة التي سادت فيها علاقة تبادلية بين الأنثروبولوجيا والاستعمار، تم بموجبها توظيف الأبحاث الأنثروبولوجية في تسهيل إدارة المستعمرات والسيطرة عليها وضمان انصياعها لمتطلبات الاقتصاد الاستعماري، مقابل توفير الدعم ومادة الدراسة للأنثروبولوجين. فالتغيرات الكبير والسريعة ومتطلبات التنمية في هذه البلدان ولَّدت نقاشًا ساخنًا حول الدور الذي يمكن أن يلعبه العلماء الاجتماعيون عامة، وحول كيفية مساهماتهم وعلاقاتهم مع الإداريين، في تزامن مع اعتراف متزايد في العديد من البلدان بأن للعلوم الاجتماعية دورها الذي لا غنى عنه في التعامل مع قضايا التنمية وكل ما يؤثر عليها، ووضع مقترحات مفصلة للمشاريع التنموية. وفيما يتعلق بالأنثروبولوجيا في هذا السياق، دار السؤال حول فائدتها العملية الممكنة.

يعتقد الكثيرون أن التجارب البحثية في الدول النامية أنتجت الاهتمام بتطبيق الأنثروبولوجيا على المشكلات ذات الصبغة العملية، وبذلك أصبح للأنثروبولوجيا تأثير أكبر على الشؤون العملية، ومشاركة مباشرة أكثر في التطوير الإداري، كما عملت على مساعدة الإداريين على فهم "العقلية المحلية" بشكل أفضل. تسليمًا بصحة هذا الاعتقاد، يفترض أن أغراض الأنثروبولوجيا، التي استخدمت سابقًا لضبط الشعوب المستعمرة والتحكم فيها، قد تحوَّلت لمساعدة هذه الشعوب ودعم استقلالها وتطلعها

إلى بناء مستقبلها في فترة ما بعد الاستقلال، التي تطلبت من علماء الأنثروبولوجيا المشاركة الفعالة في إعداد برامج تناسب احتياجات بلدان هذه الشعوب من الكوادر المؤهلة وخطط التنمية. مثل هذه الاعتقاد وهذه الفرضية ظهرت في العديد من الأعمال المنشورة واللقاءات العلمية لعلماء الأنثروبولوجيا في العديد من بلدان العالم، بما فيها السودان.

تلقي هذه الورقة الضوء على رؤى "إيان جورج كنيسون" (Ian George Cunnison) حول الدور المتوقع للأنثروبولوجيا في عمليات التنمية والتغيير الاجتماعي في المجتمعات النامية، ومساهمات وعلاقات علمائها الممكنة مع الإداريين، والاعتبارات الأخلاقية ذات الصلة في هذا الخصوص، والتي تضمنتها مقالات ثلاث كتبها ونشرها هو في فترة عمله بجامعة الخرطوم (السودان). انطلاقًا من فرضية تأثر كنيسون بالجو العام والنقاش الذي دار فيه حول دور العلوم الاجتماعية في مجتمعات ما بعد الاستقلال، تُستخدم صلاته بالأنثروبولوجيين المهتمين بالسودان، واهتماماته النظرية، وتجربته البحثية، وسيرته الذاتية كما تظهر في ثمان من وثائق مكتبة جامعة درهام (Durham) بالمملكة المتحدة، ونتائج مقابلات مع بعض زملائه وطلبته الذين مازالوا يعملون في كلية الدراسات الاقتصادية والاجتماعية بجامعة الخرطوم في فهم رؤاه هذه.

## 1. بواكير الدراسات الأنثروبولوجية في السودان:

للأنثروبولوجيا في السودان تاريخ طويل، أُستهل بزيارة عالم الأنثروبولوجيا البريطاني السير فرانسيس غالتون (Sir Francis Galton) في عامي 1845 و1846 ضمن جولة استكشافية بدأها بمصر، ومنها سافر عبر النيل إلى الخرطوم في السودان، ومن هناك إلى بيروت ودمشق والأردن. ومع ذلك، لم يتم إضفاء الطابع المؤسسي على الأنثروبولوجيا في السودان إلا بعد عام 1909، عندما دعت الحكومة الإنجليزية الاستعمارية عالم الأنثروبولوجيا البريطاني تشارلز غابرييل سيليجمان ( Charles Gabriel Seligman) لإجراء بعض الأبحاث الاثنوجرافية (1909-1910 و1921-1922). وبدأ سيليجمان بدراسة الكبابيش[1] وبعض قبائل جنوب السودان (مثل الدينكا والشلوك والأنواك والأشولي)، ثم انتقل إلى شرق السودان لدراسة البني عامر. ويلاحظ أن سيليجمان كان مهتمًا ـــوفقًا للاهتمامات البحثية في تلك الفترةـــ بدراسة الاختلافات العرقية وآثارها على الحياة الثقافية، وبدراسة الأعراق الرئيسية آنذاك. وبعد سيليجمان، وتحت إشرافه (1926-1936)، جاء عالم الأنثروبولوجيا البريطاني السير إدوارد إيفان إيفانز بريتشارد (Sir Edward Evan Evans-Pritchard) الذي واصل عمل أستاذه، إلا أنهما اختلفا على أمرين: أولهما من الناحية النظرية؛ حيث كان إيفانز بريتشارد أكثر ميولًا للمدرسة الوظيفية، متأثرًا بأستاذه برونيسلو مالينوفسكي (Bronislow Malinowski). وثانيهما

[1] الكبابيش من القبائل العربية، التي تمتهن رعى الإبل و الزراعة، وتوجد في منطقة شمال كردفان (غرب السودان).

حينما ركز إيفانز بريتشارد دراساته —بتشجيع من حكومة السودان— على القبائل النيلية في جنوب السودان (الزاندي والنوير والأنواك). بعد إيفانز بريتشارد كان هناك عدد قليل من علماء الأنثروبولوجيا الحكوميين،[1] الذين تركزت أبحاثهم في جنوب السودان (Evans-Pritchard, 1962).

تغير هذا النمط من الأبحاث الأنثروبولوجية المهنية مع قدوم إيان كنيسون في الفترة 1952-1955، عندما طلبت منه حكومة السودان دراسة البقارة (الميسيرية الحُمُر). حدث ذلك على الرغم من أن كنيسون كان جزءًا مما يمكن تسميته "دائرة تلمذة (من أساتذة وطلبة)"، والتي شملت إيفانز بريتشارد الذي درس الأنثروبولوجيا كطالب دراسات عليا في كلية لندن للاقتصاد تحت إشراف سيليجمان، والذي كان بدوره أستاذًا للينهارت ولكنيسون. عمل هؤلاء العلماء الأربعة كباحثين أنثروبولوجيين حكوميين في السودان بين عامي 1909 و1955. وكانوا جزءًا لا يتجزأ من استخدام الأنثروبولوجيا لأغراض الإدارة الاستعمارية، والذي بدأ في عام 1909 في شكل دعوات من الحكومة الاستعمارية إلى علماء الأنثروبولوجيا المحترفين لإجراء أبحاث اثنوجرافية على بعض القبائل في السودان.

## 2. مقتطفات من السيرة الذاتية الأكاديمية لكنيسون:

تُظهر سيرة كنيسون الذاتية أنه درس الفرنسية والألمانية لمدة عامين (1941-1942) ثم الأنثروبولوجيا الاجتماعية وعلم الآثار لمدة ثلاثة أعوام (1945-1947: للحصول على درجة البكالوريوس) في جامعة كامبريدج. وفي الفترة 1948-1951 قام كنيسون —تحت إشراف إيفانز بريتشارد في جامعة أكسفورد— بعمل أنثروبولوجي للدكتوراه في مجتمع صيد بوادي لوابولا في روديسيا الشمالية (زامبيا الآن). وقد طبق اهتمامات واسعة ودمج علمي الآثار والتاريخ في تلك الدراسة (Cunnison, Timeline– Prepared for Residential Care Home). هذه الملاحظة تكشف عن التوجه النظري لكنيسون. فبالرغم من أن مشرفه إيفانز بريتشارد كان أكثر ميلًا للمدرسة الوظيفية، كما ذُكر سابقًا، جاءت أعمال كنيسون في أوج المدرسة البنيوية عندما كان علماء الأنثروبولوجيا أكثر اهتمامًا بكشف البنيات الكامنة وراء عمل المجتمعات، ووراء الأشياء التي يفعلها البشر، ويتفكرون فيها،

[1] مثل: البريطاني سيغفريد فريدريك ناديل [Siegfried Frederick Nadel] (بعض الجماعات القبلية بجبال النوبة، مثل هيبان وعطورو والتيرا: 1939-1940)؛ والبريطاني رونالد غودفري لينهارت [Ronald Godfrey Lienhardt] (الدينكا والأنواك: 1948-1954)؛ والبريطاني جيان كارليل باكستون [Jean Carlile Buxton] (مانداري: 1951-1952)؛ والبريطاني جون فرانسيس مارشمنت ميدلتون [John Francis Marchment Middleton] (لوغبارا: 1949-1952)؛ والبريطاني إلينون ماكهاتون [Elinon McHatton] (لوتوكو: 1951-1954)؛ والأمريكي كونراد كوبلاند رينينينغ [Conrad Copeland Renining] (الزاندي: 1952-1955)؛ والألماني أندرياس كرونبرغ [Andreas Kronenberg] (النوبة النيمانغ والبونغو وديدينغا ولونغاريم: 1957 و1958-1999 و1959-1961 على التوالي).

ويدركونها، ويشعرون بها. نجد هذا التوجه البنيوي واضحًا في أبحاث كنيسون وآرائه حول قضايا التنمية والتغيير الاجتماعي في المجتمعات.

بعد انتهائه من الدكتوراه، ونتيجة لمراسلات رسمية شملت إيفانز بريتشارد، سنحت لكنيسون الفرصة لإجراء دراسة أخرى على إحدى قبائل شمال السودان (1952-1955). وعُرضت عليه منحة حكومية لإجراء هذه الدراسة، كما أُحيلت مسألة القبيلة، التي طلب منه دراستها، إلى ما يسمى "مجلس الأنثروبولوجيا"، الذي كان ملحقًا بوزارة الداخلية السودانية. في البداية، كان يُعتقد أن دراسة عرب البقارة البدو في جنوب غرب كردفان قد تكون مناسبة، خاصة فيما يتعلق بتأثير عملية التنمية الزراعية في تلك المنطقة.[1]

وفي اجتماع لاحق لمجلس الأنثروبولوجيا، تمت الموافقة على طلب كنيسون لدراسة قبيلة المسيرية العربية في إقليم كردفان. وفي الاجتماع ذاته، أُتفق على أن يكون أحد شروط عقده تقديم تقرير مكتوب في شكل مناسب لاستخدام الموظفين الإداريين إلى حكومة السودان في غضون سنتين من انتهاء فترة دراسته الميدان. لم يكن هناك أي ضغط عليه لإجراء الدراسة في جانب معين. لقد فعل ما يحلو له، وهو ما يعني ممارسة البحث الأنثروبولوجي التقليدي المعروف في ذلك الزمان، كما ورد في العقد المبرم معه أنه لم يُعامل كمسؤول حكومي من الناحية المالية (Sudan Government, 1950). ومثلما ذكر هو مرارًا وتكرارًا، فهذه الدراسة كانت أكاديمية مستقلة، كما أنه توصل إلى استنتاجاته بنفسه (Cunnison, Witness Statement, Abyie Boundary Dispute, 2008).

أسفر ذلك المشروع في عام 1966 عن كتاب كنيسون عن عرب البقارة، الذي فيه تتبع الهجرة الموسمية لرعاة الماشية البدو المتمركزين في جنوب كردفان إلى أراضي قبيلة دينكا نغوك في إقليم بحر الغزال بجنوب السودان. لقد أمضى أكثر من عامين مع المسيرية الحُمر في جنوب كردفان، في عمل ميداني مكثف من خلال الملاحظة بالمشاركة. وكان مهتمًا بتسجيل كل شيء: اللهجات العربية، ومراحل الهجرة السنوية، وصيد الزرافات، ووسم الماشية بالنار، ونداءات الطبول، والتأثير غير الرسمي للنساء في

[1] هناك سبب آخر يمكن تخمينه: كانت هذه الجماعة القبلية تجاور بعض جماعات جنوب السودان وجبال النوبة، وهو ما يمكن أن يكون له تأثير على العملية السياسية في البلاد بعد استقلالها السياسي. هذا لأن الحكومة الاستعمارية آنذاك أصدرت ما سمي "قانون المناطق المقفولة"، الذي حظر دخول الأجانب والسودانيين الشماليين مناطق جنوب السودان وجبال النوبة أو الإقامة فيها من غير تصريح رسمي. هذا إلى جانب استثناء هذه المناطق من عضوية المجلس التشريعي بشمال السودان، وحظر هذا المجلس من مناقشة الأمور المرتبطة بتلك المناطق، واستخدام اللغة الإنجليزية واللغات القبلية في مؤسساتها التعليمية بدلًا عن اللغة العربية، وإرسال أبناء الجنوبيين للدراسة في أوغندا عوضًا عن كلية غوردون التذكارية، ومحاربة الدعوة إلى الإسلام وتشجيع التبشير بالدين المسيحي. وكانت تلك الممارسات المتزامنة تمهيدًا لتحقيق واحد من بدائل ثلاثة: أولًا: فصل هذه المناطق عن شمال السودان والحاقها بأوغندا. ثانيًا: تأسيس إدارة فيدرالية لهذه المناطق والحاقها بشمال السودان. ثالثًا: الحاق هذه المناطق بشمال السودان باعتبارها أحد أقاليمه [انظر: (روبرتسون، 1996) (العدوي، 1979)].

المجتمع، والعلاقات الإنسانية في المخيمات في سياق شبكات العلاقات الأوسع مع المجتمعات المحلية المجاورة، والثقافة السياسية، وهياكل السلطة المتغيرة للقبيلة والأسرة في سياق البنية الاستعمارية الفوقية.

بعد انتهاء كنيسون من دراسته في شمال السودان، تم تعيينه محاضرًا بجامعة مانشستر (1956-1959). وفي عام 1959، وقع عقدًا مع جامعة الخرطوم للعمل كمحاضر في الأنثروبولوجيا لمدة خمس سنوات (1959-1964) (Khartoum, Memorandum of Agreement between the University of Khartoum and Ian George Cunnison, 1959). ومدد فترة عمله في جامعة الخرطوم لسنة أخرى (1964-1965)، وهي الفترة التي تمت ترقيته فيها إلى درجة الأستاذية. وراء التعاقد معه كانت معرفته العميقة ببعض المجتمعات المحلية في السودان، والمعرفة المسبقة به من إدارة كلية الدراسات الاقتصادية والاجتماعية بجامعة الخرطوم، التي رأت، ممثلة في العميد (سعد الدين فوزي، وعمر محمد عثمان لاحقًا)، أنه كان الشخص الأنسب للوظيفة المعلنة آنذاك لإنشاء قسم للأنثروبولوجيا الاجتماعية وعلم الاجتماع.

وما يمكن ملاحظته بوضوح هو تأثر اهتمامات كنيسون النظرية، خلال فترة عقده، بسياسة إدارة الكلية لربط البرامج الأكاديمية والأبحاث بالتنمية وغيرها من قضايا المجتمع السوداني، والتي كانت من تأثيرات الجو العام والنقاش الدائر حول الدور الذي يمكن أن تلعبه العلوم الاجتماعية في السودان بعد الاستقلال. أصبح كنيسون مهتمًا بقضية التنمية في السودان، وبدأ يشجع زملائه وطلبته على المساهمة في معالجتها، كما بدأ في صياغة وجهة نظره حول كيفية مساهماتهم وعلاقاتهم مع الإداريين.

كانت الفترة التي عمل فيها كنيسون كرئيس لقسم الأنثروبولوجيا الاجتماعية وعلم الاجتماع (1959-1965) مهمة في تاريخ السودان عامة، والأنثروبولوجيا في السودان بشكل خاص. لقد كان السودان يخرج لتوه من الاستعمار، ويتطلع إلى بناء مستقبله. وذكر كنيسون أنهم كأجانب شعروا بأن تلك الفترة كانت تتطلب منهم إعداد برامج تناسب احتياجات البلاد من الكوادر المؤهلة وخطط التنمية، وبالتالي أنشأوا مشروعًا متكاملًا يمكن لقسم الأنثروبولوجيا الاجتماعية وعلم الاجتماع أن يعمل من خلاله. في تلك الفترة، تميز القسم بتنوع جنسيات أعضاء هيئته التدريسية،[1] وتخصصاتهم الدقيقة، وخبراتهم الأكاديمية والبحثية، واهتماماتهم وتوجهاتهم النظرية والمنهجية، كما درس بعضهم في إنجلترا أو

[1] (1) البريطانيون إيان كنيسون (Ian Cunnison)، وويندي جيمس (Wendy James)، ولويس هيل (Lewis Hill). (2) البلجيكي جورج براوش (Georges Brausch). (3) الأمريكي فارنهام ريهفيش (Farnham Rehfisch). (4) طلال أسد (Talal Asad: من أب باكستاني نمستراوي وأم سعودية). (5) العراقي أحمد الشاهي. (6) النرويجي فريدريك بارث (Fredrick Barth).

أمريكا، وبعضهم أجرى أبحاثًا ميدانية في أجزاء مختلفة من إفريقيا أو آسيا أو كندا أو الدول الاسكندنافية.

وكان بعضهم أكثر ميولًا إلى البحث التطبيقي؛ بينما اهتم آخرون بالبحث النظري. بالرغم من هذا التنوع، كان الانسجام سائدًا في القسم حول بعض قضايا التنمية كمحور بحثي (مثل قضية توطين البدو) بسبب الشخصية التوفيقية لكنيسون كونه رئيسًا للقسم، ووجود خطة عمل وبرامج واضحة لعمل هذا القسم، وإصرار إدارة كلية الدراسات الاقتصادية والاجتماعية على أن تكون البرامج الأكاديمية والأبحاث ذات صلة بالتنمية وقضايا المجتمع الأخرى.

في يوليو 1965م، استقال إيان كنيسون من جامعة الخرطوم بعد أن لعب دورًا بارزًا في تطوير قسم الأنثروبولوجيا الاجتماعية وعلم الاجتماع، وكسب سمعة دولية، وقدم خدمات قيِّمة لجامعة الخرطوم داخل وخارج جدرانها. لقد عُرض عليه منصب في قسم علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الاجتماعية بجامعة هال (Hull)، حيث تولى كرسي الأنثروبولوجيا في الفترة (1966-1989) (Khartoum, File No. (Khartoum, File No. UK/VCO/Personnel, 1965) .ASO/RH/CR/290-2, 1966)

## 3. الفائدة النظرية من أعمال كنيسون:

كان كنيسون من علماء الأنثروبولوجيا، الذين مروا بعلاقات شخصية عاطفية مع الأشخاص المدروسين بسبب الفترات الطويلة التي عاشوا فيها معًا على مقربة. وبالتالي، كان مغرمًا جدًا بالمسيرية الحُمر، ورفض إجراء أي تغيير في قيمهم، وعاداتهم، وتقاليدهم، وعناصر ثقافتهم الأخرى. لقد حرص على الحفاظ على أسلوب حياتهم، كما تعامل مع ثقافتهم ومؤسساتهم الاجتماعية دون نقد حقيقي. حتى أنه كثيرًا ما تحدث عن معارضته نشر صور الأشخاص المدروسين، لأنها من الخصوصيات التي ترق إلى مستوى الأسرار.[1] بل أكثر من ذلك، كان يدافع باستمرار عن المسيرية الحُمر ومصالحهم. على سبيل المثال، في ديسمبر 2008، عندما كان أستاذًا متقاعدًا للأنثروبولوجيا الاجتماعية، قدَّم لحكومة السودان، طوعًا ودون دفع أي رسوم، إفادة شاهد تتعلق بمناطق "حقوق مشتركة" للرعي والسكن تقع على القيزان الرملية على الحدود بين المسيرية الحُمر ودينكا نقوك، والتي حددتها لجنة حدود أبيي في تقريرها الصادر في 14 يوليو 2005.[2] في هذه الإفادة، أيَّد المسيرية الحُمر فيما يخص الحقوق المتنازع عليها، واعتبر قرار لجنة

[1] مقابلة مع أحد الطلبة الذين أشرف إيان كنيسون على أطروحاتهم لنيل درجة الدكتوراه: الدكتور حسن محمد صالح، الذي يعمل حاليًا أستاذًا مشاركًا في قسم علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الاجتماعية، كلية الدراسات الاقتصادية والاجتماعية، جامعة الخرطوم (16 أغسطس 2015).

[2] أبيي هي منطقة متنازع عليها الآن على الحدود بين السودان وجنوب السودان، ويطالب بها كلا البلدين. وهي المنطقة، التي تحتوي على المراعي الخصبة التي ينتقل إليها المسيرية الحُمر في رحلتهم الصيفية من أطراف الصحراء.

حدود أبيي باستبعادهم من هذه المناطق غير عادل (Cunnison, Witness Statement, Abyie Boundary Dispute, 2008).

يبدو أن تجربة كنيسون البحثية في السودان كانت تقف وراء أحد اهتماماته النظرية الرئيسية، التي ظهرت في سيرته الذاتية: تطبيق الأنثروبولوجيا على مشكلات التنمية الريفية ( The 1st Register of Members، 1969). هذه التجربة وهذا الاهتمام مفيدان في فهم ثلاث مقالات كتبها هو خلال فترة عمله كأستاذ للأنثروبولوجيا في الخرطوم.[1] تشترك هذه المقالات في موضوع واحد، يتمثل في وجهات نظر كنيسون حول الدور المتوقع للأنثروبولوجيا والعلاقة بين علماء الأنثروبولوجيا والإداريين فيما يخص التنمية في السودان. ويُلاحظ أن المقالات الثلاث لا تشكل عملًا منفردًا، يبدأ من نسخة ابتدائية ثم يتطور إلى عمل رفيع في مستواه العلمي. فهي تنطلق من نقاط تركيز مختلفة. نُشر أول هذه الأعمال الثلاثة بعنوان: " the technical and moral position of the anthropologist in relation to the economic development of tribal societies" في عام 1962.[2] أما المقالة الثانية، فقد جاءت بعنوان: "progress of anthropological research in the Sudan".[3] المقالة الثالثة: " changing relations of anthropology and administration in the Sudan"، تم تقديمها كورقة بحثية في سلسلة الندوات المسائية، التي كان يعقدها مركز الأبحاث الاقتصادية والاجتماعية بالخرطوم، ثم نُشرت في عام 1977 في مجلة السودان لأبحاث التنمية (المجلد 1، العدد 1).

كما ورد في المقالة الأولى، التي تتحدث عن الموقف الفني والأخلاقي لعالم الأنثروبولوجيا إزاء التنمية الاقتصادية للمجتمعات القبلية، فإن الأنثروبولوجيا لديها الكثير لتقوله عما هو مهم بشكل عام، والمعرفة بما تقوله تساعد على تجنب الأخطاء. تعتمد المعرفة الأنثروبولوجية بمشكلات تنمية المجتمعات القبلية على ظروف العمل الميداني، التي لها اعتبارات أخلاقية تمنع المتخصص في هذا المجال من القيام بالمهام التنفيذية أو تطبيق معرفته في المجالات التنفيذية بطريقة مباشرة. ومن الناحية الفنية يمكن أن

[1] محتوى المقالات، التي نُوقشت في هذا الجزء، يُرجِّح احتمال تأثر كنيسون بالحركة الفابية الاشتراكية البريطانية المناهضة للاستعمار، تمامًا مثل سعد الدين فوزي وعمر محمد عثمان. وإذا كان هذا الاحتمال هو الحقيقة، فتعيين كنيسون في جامعة الخرطوم كان من المؤكد نتاجًا لعلاقات شخصية أيديولوجية.

[2] نشر هذا العمل الأول في المجلد الأول لمجلة المجتمع السوداني، وهي مجلة دورية لجمعية الدراسات الاجتماعية بكلية الدراسات الاقتصادية والاجتماعية – جامعة الخرطوم (توقف نشرها منذ عام 1972).

[3] ظهرت هذه المقالة الثانية عام 1964 في إصدارة معنونة بـ: " research in Sudan, proceedings of the XII annual conference of the Sudan Philosophical Society". وظهرت أيضًا في عام 1965 في الجزء المكتوب باللغة العربية من العدد الثالث لمجلة المجتمع السوداني، تحت عنوان: "تقدم الأبحاث الأنثروبولوجية في السودان".

تخدم معرفة عالم الأنثروبولوجيا عن أي قبيلة الإدارة بتوفير المطلوب من تقارير وقائعية، كما أن هناك مبرر قوي لإجراء الأبحاث على المجتمعات القبلية قبل الشروع في عمليات تنميتها (Cunnison, The Technical and Moral Position of the Anthropologist in Relation to the Economic Development of Tribal Societies, 1962).

يستعرض كنيسون في المقالة الثانية، التي تناقش مسألة تقدم الأبحاث الأنثروبولوجية في السودان، المسارات التي اتخذتها هذه الأبحاث، وبعض المتطلبات المستقبلية. ويؤكد أنه حتى وقت اندلاع الحرب الأهلية في جنوب السودان،[1] مع استثناءات قليلة، كانت الأعمال البحثية مقصورة على مسارين. لقد أُجريت في الغالب في جنوب السودان، خاصة في مجتمعات قبلية غير متغيرة أو بالتركيز على عناصر الثقافة فيها قبل التغير السريع الذي شهدته. أما أثناء الحرب وبعدها، فقد أظهرت التقارير مزيدًا من الاهتمام بقضية التغير. لقد كان الناس في جنوب السودان غرباء، وفهم أساليب معيشتهم أقل، ولغاتهم غير مألوفة إلى حد بعيد. فشجع الإداريون الأبحاث الأنثروبولوجية في وقت كان علماء الأنثروبولوجيا يميلون للبحث عما هو غير مألوف، والعمل وسط "البدائيين"، والاهتمام باكتشاف الثقافات التي لم تتم دراستها وكتابة تقارير وصفية عنها. ومنذ عشرينيات القرن الميلادي الماضي، تطور نوع مختلف من الأنثروبولوجيا، ولم يعد الاهتمام فيه بعادات ومؤسسات المجتمع في حد ذاتها، ولكن أصبح موجهًا نحو تفسير كيفية ارتباطها ببعضها البعض، على افتراض أنها منظَّمة وتشكِّل وحدة وظيفية موحَّدة. لقد تحوَّل التركيز من الثقافة إلى العلاقات الاجتماعية والترابط بين العناصر الاجتماعية. بالتالي أصبح للأنثروبولوجيا تأثير أكبر على الشؤون العملية، ومشاركة مباشرة أكثر في التطوير الإداري. ومن أجل مساعدة الإداريين على فهم "العقلية المحلية" بشكل أفضل، دعمت الحكومة الاستعمارية علماء أنثروبولوجيا محترفين ماليًا، كما كان هناك طاقم إداري من المدرَّبين في مجال الأنثروبولوجيا. وتم افتتاح قسم الأنثروبولوجيا الاجتماعية وعلم الاجتماع بجامعة الخرطوم في عام 1958 ليكون في خدمة الإدارة والتخطيط التنموي. أصبح هذا القسم يجري أبحاثًا تهدف إلى تغطية تمثيلية للقبائل في شمال السودان، والتي كانت مهملة قبل التطورات أو التغييرات واسعة النطاق فيها. هنا يشدد كنيسون على الآثار العملية للموضوع، لأنه يعتقد أن هناك التزامًا على علماء الأنثروبولوجيا لتقديم المساعدة الممكنة لتنمية البلاد.

[1] يقصد بذلك الحرب الأهلية الأولى، التي جسدت ذروة النزاع بين الإقليمين الشمالي والجنوبي من السودان في الفترة من 1955 إلى 1972، والذي تضمن مطالبة الإقليم الجنوبي بالتمثيل السياسي ومزيدًا من الحكم الذاتي الإقليمي. ثم كانت الحرب الأهلية الثانية (1983-2005) التي كانت إلى حد كبير استمرارًا للحرب الأهلية الأولى، وقادت إلى انفصال جنوب السودان في عام 2011 بعد مفاوضات بدأت في يونيو 2002 وانتهت في 9 يناير 2005 بتوقيع اتفاقية سلام شامل حددت جدولًا زمنيًا لإجراء استفتاء في جنوب السودان على استقلاله. وتم تشجيع ودفع عملية السلام هذه بوساطة الهيئة الحكومية الدولية المعنية بالتنمية (إيقاد)، فضلًا عن شركاء إيقاد، وخبراء من بلدان مانحة.

ومع ذلك، كان يرى أن هؤلاء يجب أن يظلوا مختلفين تمامًا عن المخططين والإداريين. ولأنه لم يكن هناك ما يكفي من الأبحاث في العلوم الاجتماعية، كما كانت تتم بطريقة عشوائية إلى حد ما، فقد اعتقد أن هناك حجة قوية لإنشاء مركز أبحاث خاص بهذه العلوم في السودان، والذي من شأنه تكثيف الأبحاث وتحسين جودتها. وبالنسبة له، لا يمكن تبرير تكاليف إنشاء مثل هذا المركز إلا من حيث الدور الذي يمكن أن يلعبه في تنمية البلاد (Cunnison, Progress of Anthropological Research in the Sudan, 1964). والأهم هو أن نبوءته عن هذا المركز تحققت بإنشاء مجلس الأبحاث الاقتصادية والاجتماعية (ESRC) في الخرطوم في عام 1974.

تتبع المقالة الثالثة، التي تتناول موضوع العلاقات المتغيرة بين الأنثروبولوجيا والإدارة في السودان، نفس الاتجاه، وتتحدث عن أن للعلماء الاجتماعيين، خاصة الأنثروبولوجيين، دور في التنمية الريفية، كما تتحدث عن الطريقة التي تتغير بها الأنثروبولوجيا في السودان. وتشير هذه المقالة إلى تطورات في طرق تفكير المخططين، أدت إلى تقريب مواقفهم كثيرًا من تلك التي تمسَّك بها علماء الأنثروبولوجيا لفترة طويلة. تقليديًا، مثلما تقول المقالة، منحت طريقة العمل الميداني عالم الأنثروبولوجيا فرصة بناء علاقة طويلة وحميمة مع الأشخاص المدروسين، مما جعله يربط نفسه معهم بشكل وثيق (Cunnison, Changing Relations of Anthropology and Administration in the Sudan, 1977). وتكشف هذه المقالة عن ثلاث فترات متميزة لوجود الأنثروبولوجيا في السودان. في الفترة الأولى (من عام 1910 إلى الاستقلال) كان هناك أبحاث أجراها أجانب في ظل الحكومة الاستعمارية، ولم يكن هناك تعاون هادف يذكر بين الأنثروبولوجيين والإداريين، الذين ما كانوا يمزجون بين خبراتهم أو مهاراتهم للأغراض العملية. وتميز عمل عالم الأنثروبولوجيا بنهجه "الأكاديمي"، الذي يتضح للأكاديميين أكثر مما يتضح للإداريين أو المخططين. ومن وجهة نظر الإدارة، كان هناك افتراض بأن الأنثروبولوجيا يمكن أن تساعد بطريقة عامة جدًا. لقد تم تشجيع الإداريين البريطانيين على أخذ دورات في الأنثروبولوجيا (من بين دورات متخصصة أخرى) في الجامعات البريطانية. وأوجدت صلة رسمية من نوع آخر من خلال مجلس الأنثروبولوجيا، الذي كان مرتبطًا بوزارة الداخلية السودانية، وتمثل عمله في الموافقة على الطلبات الواردة من الخارج لإجراء أبحاث في السودان على أساس الجدوى ومؤهلات مقدميها، ولم يقم بأي محاولة للتأثير على التوجهات التي ينبغي أن يتخذها الباحثون في أبحاثهم.

بدأت الفترة الثانية في عام 1958 عندما بدأ تدريس الأنثروبولوجيا بجامعة الخرطوم، واستمرت إلى حوالي عام 1971. كان الأساتذة والباحثون حينها لا يزالون أجانب، لكنهم كانوا يعملون في مؤسسة سودانية وفي ظل حكومة سودانية. لقد تغيرت الأحوال العامة بشكل كبير. وتولت جامعة الخرطوم دور المحرك الرئيسي في مجال الأبحاث. وقرر علماء الأنثروبولوجيا في القسم الجديد التركيز على شمال

السودان،[1] وكانوا مدركين أن أبحاثهم يجب أن تكون مفيدة للسودان باعتباره بلدًا بدأ يأخذ قضية التنمية على محمل الجد. إلا أن رداءة مستوى اللغة العربية لدى معظمهم، والالتزامات المتعددة، والقضايا المثيرة للخلاف والجدل سياسيًا في مناخ أوائل الستينيات، والوقت المتاح، والظروف العامة، وصعوبة الاتصال — كلها عوامل بررت رفض مقترحاتهم ومقارباتهم من الدوائر الحكومية المعنية، وجعلتهم في وضع لا يسمح لهم بالتحكم في الأمور كما ينبغي. هذا لأنهم كانوا "موجودين في المجتمع، ولكن ليسوا منه". ووفقًا لذلك، صاحب الأبحاث تحوُّل في مواضع التركيز، وبدأ طرح مشكلات محددة ذات صبغة عملية، والتي من بينها ظهر وهج قضية توطين الرعاة البدو بشكل كبير، ومشكلات الحكم المحلي. لقد كان هناك أبحاث كثيفة حول كل ما يؤثر على التنمية. ما يهم في هذه الفترة الثانية هو أن علماء الأنثروبولوجيا أدركوا أنه ينبغي أن يكون لهم دور يلعبونه في التنمية، وبدأ مسؤولو الإدارة في التعامل معهم، ولكن كان هناك سوء تفاهم متبادل، كما لم تكن العلاقة بينهم سلسة. لقد كان هناك غياب للمشاورات، التي كانت من الأشياء الضرورية والمتوقعة. وفي بعض الأحيان كان علماء الأنثروبولوجيا يرفضون ما يصلهم من طلبات من هؤلاء المسؤولين لإجراء بعض الدراسات الاستقصائية. ربما كان وراء كل ذلك أنهم لم يكونوا مقنعين بدرجة كافية في شرح نوع الوقت والظروف التي يطلبها العمل في هذا المجال، وربما لم تكن لديهم الرغبة في تجريب أنماط عمل غير تقليدية.

مع عودة أوائل طلبة الأنثروبولوجيا السودانيين الحاصلين على درجات علمية عليا من خارج البلاد، أصبحت رئاسة قسم الأنثروبولوجيا الاجتماعية وعلم الاجتماع سودانية، كما كان الجزء الأكبر من الهيئة الأكاديمية. بعد ذلك بوقت قصير، ظهر مجلس الأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، الذي أعطى ظهوره مجالًا أكبر لتوظيف علماء الأنثروبولوجيا السودانيين. كانت هذه هي الفترة الثالثة، التي بدأت في الأعوام الأولى من السبعينيات، مميزة تمامًا عن الفترتين السابقتين، حيث كان علماء الأنثروبولوجيا "موجودين في المجتمع ومن المجتمع" على حد سواء. لقد أتاحت اللغة المشتركة وتجارب بناء الأمة المتبادلة بينهم والإداريين الفرصة لتبلور اهتمامات متداخلة ومتوافقة. وعملت حقيقة أنهم والإداريين مواطني مجتمع واحد على تسهيل المهمة. وشملت هذه الفترة الأعمال البحثية لعلماء الأنثروبولوجيا السودانيين الرواد. اختار اثنان منهم الدراسات الحضرية. وظهرت على أعمال بعض الذين عملوا في المجتمعات الريفية سمة أنهم لم يأخذوا القبيلة كوحدة لدراساتهم، بل أخذوا بعض الوحدات الأخرى، مثل المناطق الإدارية المحلية، لكونها تتيح تحليلًا أكثر تفصيلًا للعلاقات بين المكان والسكان.

أتت فترة أوائل السبعينيات بتطورات، مثلت الأنثروبولوجيا إحداها. لقد تم حشد الطلبة ليس في قسم الأنثروبولوجيا الاجتماعية وعلم الاجتماع بجامعة الخرطوم فقط، بل في مجلس الأبحاث

[1] هذا جزئيًا بسبب الاضطرابات الأمنية ولأن معظم الأعمال السابقة أُجريت في الجنوب.

الاقتصادية والاجتماعية ووزارة الثقافة ومعهد الدراسات الأفريقية والآسيوية أيضًا. ومن بين الأحداث، التي أدت إلى ذلك، الاعتراف المتزايد في السودان وبلدان أخرى بأن للعلوم الاجتماعية دورها الذي لا غنى عنه في التعامل مع قضايا التنمية، وكذلك دخول العديد من خريجي كلية الدراسات الاقتصادية والاجتماعية بجامعة الخرطوم وزارات مرتبطة بالتنمية. ووقف مجلس الأبحاث الاقتصادية والاجتماعية في مكان وسيط بين الدوائر الأكاديمية والإدارية، وعمل على تسخير الإمكانات العملية لمختلف التخصصات، كما أدخل علماء الأنثروبولوجيا في علاقات وثيقة مع الإدارة ومنحهم دورًا شبه إداري من خلال مشاركتهم في وضع مقترحات مفصلة لمشاريع التنمية. فما لدينا في الواقع هو إحياء لعالم الأنثروبولوجيا الحكومي، ولكن في دور جديد أكثر تكاملًا: الانخراط في الأنثروبولوجيا التطبيقية.

ما أعطى الأنثروبولوجيا التطبيقية الصفة السيئة سابقًا هو أن التطبيق كان يعني جمع البيانات والمعلومات لمصلحة موظفي نظام استعماري يتصرفون بأسلوب أبوي من الطراز القديم. ينبغي أن يؤسس قبول الأنثروبولوجيا التطبيقية اليوم على مبدأ أن الأشخاص المحتمل تأثرهم بخطط التنمية يجب أن تتوفر لديهم إمكانية الوصول إلى المعلومات المتعلقة بهم، وأن يكونوا في وضع يسمح لهم بإيصال آرائهم إلى السلطات المعنية والتأثير على النتائج، بمعنى أن تكون مصالحهم ممثلة ومأخوذة في الاعتبار. يعتقد كنيسون أن ضمير عالم الأنثروبولوجيا بهذه الطريقة سيسمح له بأداء عمله، وأنه سيعمل بشكل صحيح عند دخوله في صداقة وثقة متبادلة مع الأشخاص الذين يدرسهم، الشيئ الذي سيمكِّنه من الحصول على قدر كبير من البيانات والمعلومات النوعية التي يحتاجها لتحليلاته وتفسيراته. ويمكن الحكم على عدم أخذه مصالحهم هدفًا في دفوعاته اللاحقة كخيانة للمكانة التي سُمح له ببلوغها بينهم. فحساسية القضايا الأخلاقية تكون في أقصى درجاتها عندما يحاول عالم الأنثروبولوجيا فعل شيء عملي باستخدام ما حصل عليه من بيانات ومعلومات.

فكر كنيسون في الطريقة التي يمكن أن يطور بها علماء الأنثروبولوجيا خدماتهم في السودان مستقبلًا. بالنسبة له، هناك مرحلتان رئيسيتان للجهود، التي بُذلت سابقًا لتفسير البيانات والمعلومات المتصلة بالتخطيط التنموي: (1) الدراسات المكثفة، وربما الفردية، التي أُجريت في مناطق معينة داخل السودان. (2) العمل المكثف الذي وُجه لجمع بيانات ومعلومات واقعية محدثة، ولملء تفاصيل المجالات المعنية بشكل خاص. ويقول كنيسون إنه بدون المرحلة الأولى كان من الممكن الوقوع في أخطاء كثيرة في المرحلة الثانية، وإنه من الضروري التعرف على هاتين المرحلتين في مساهمات الأنثروبولوجيين البحثة، وإنه يجب أن تفرد مساحة واسعة للعمل البحثي الأنثروبولوجي المنظم والمنسق قبل بدء عملية التنمية. ومثلما يرى هو، يمكن أن تكون الأبحاث بهذه الطريقة مفيدة في تنمية البلاد، كما سيتم بالتدريج تشكيل هيئة من المتخصصين في الأنثروبولوجيا في مناطق معينة في السودان، يمكن استدعاؤهم عند الضرورة

لتقديم المشورة في الدراسات الاستقصائية (Cunnison, Changing Relations of Anthropology and Administration in the Sudan, 1977).

## 4. طريقة لفهم رؤى إيان كنيسون:

عندما كتب كنيسون المقالات الثلاثة الموجزة سابقًا، كان هناك سؤال يُطرح في الدوائر الأكاديمية والإدارية الحكومية في السودان حول ما إذا كان للأنثروبولوجيا فائدة عملية ممكنة في البلدان النامية عمومًا، والسودان بشكل خاص. وبالفعل لُوحظت بعض الشكوك —في ذلك الوقت— حول أهمية تدريس الأنثروبولوجيا في جامعة الخرطوم، كما تعرضت لبعض النقد. على سبيل المثال، قيل إنها تدرس الشعوب البدائية المتخلفة، وبالتالي لا قيمة لها للذين يرغبون في أن يتم إعدادهم لوظائف إدارية وأعمال تجارية. وثمة اعتراض آخر هو أن الأنثروبولوجيا كانت بمثابة أداة للقوى الاستعمارية، وسهلت عليها السيطرة على البلدان التابعة لها (Brausch, 1962). في الوقت الذي فكر فيه كنيسون في موضوع مقالاته الثلاث كان مدى تبرير هذه الحجج مسألة خلاف. لقد شارك أنثروبولوجيون أجانب آخرون في السودان في هذا النقاش في أوائل ستينيات القرن العشرين كما انعكس في العدد الأول من مجلة المجتمع السوداني، الذي تضمن مقالات ثلاث ترتبط ببعضها البعض: مقالة لإيفانز بريتشارد بعنوان "anthropological research in the Southern Sudan"، ومقالة لكنيسون بعنوان " the technical and moral position of the anthropologist in relation to the economic development of tribal societies"، ومقالة لجورج براوش بعنوان " the role of social anthropology in the economic development of the Sudan". على ما يبدو أن محتويات مقالات كنيسون الثلاث تأثرت بهذا النقاش، الذي كان مستمرًا داخل السودان وخارجه آنذاك. وفي ذلك الوقت أيضًا كان هناك نقاش مماثل وساخن في جامعة أكسفورد يستند إلى اتجاه قوي يقلل من قيمة "الأنثروبولوجيا التطبيقية".

في السنوات الخمس، التي تلت عودة كنيسون إلى بريطانيا للالتحاق بجامعة هال، كان هناك نقاش قوي في الجامعات البريطانية ينفي العلاقة بين الأنثروبولوجيا والاستعمار أو ينكرها. على سبيل المثال، في محاضرة في عام 1972 ذكر ريموند فيرث (Raymond Firth) أن الأنثروبولوجيا ليست بـ"وليد لقيط للاستعمار"، بل هي "وليد شرعي" للتحولات الفكرية التي حدثت بغرب أوروبا في عصر النهضة والإصلاحات وفي عصر التنوير الذي تلاه (أي الفترة من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر الميلاديين). وفي العام نفسه، وبمبادرة من كنيسون، عُقدت ندوة دراسية في جامعة هال، أسفرت عن مجلد احتوى على مقالات ذات استنتاجات معتدلة ومتسامحة نسبيًا، والتي مع ذلك ألهمت تنظيم ندوة أخرى في كلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية هاجمت ما توصلت إليه ندوة جامعة هال. وجد بيتر لويزوس (Peter Loizos)، محرر الكتاب الذي خرجت به ندوة كلية لندن للاقتصاد والعلوم

السياسية، أن الحجة الضمنية القائلة بأن الأنثروبولوجيا شريك في الاستعمار تتصف "بالحدة"، وطالب بالدقة في دراسة هذه العلاقة (Vermeulen, 2005).

ترجح اعتقادات الأنثروبولوجيون الحجة القائلة بأن علمهم سبق في نشأته حركة الاستعمار الأوروبي، ولكن تم استخدامه في تسهيل إدارة المستعمرات لاحقًا. وهم ينقسمون في شأن الأصول الأولى لعلمهم إلى مجموعتين. المجموعة الأولى تطلق على المؤرخ الإغريقي هيرودوتس، الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، لقب "الأب الروحي للأنثروبولوجيا"، وتؤكِّد أن رواد الأنثروبولوجيا كانوا فلاسفة رحالة جابوا بلاد العالم وسجلوا الكثير عن شعوبها حسب منهج الأنثروبولوجيا الحديث (علي، 2013). المجموعة الثانية ترى: أن الأنثروبولوجيا علم حديث ظهر كفرع معرفي واضح المعالم في حوالي منتصف القرن التاسع عشر الميلادي عندما استحوذ موضوع "التطور البشري" على الاهتمام العام (Barnard, 2000)، وأنها في نشأتها مرت بأربعة مراحل: أولًا: مرحلة إسهام الرحالة إبان عصر النهضة والإصلاحات في غرب أوربا (القرنين الخامس عشر والسادس عشر)، حين قاموا بكتابة تقارير عن عادات وتقاليد شعوب أمريكا وآسيا، التي صارت أخبارها تصل إلى أوربا تباعًا. ثانيًا: مرحلة الاكتشافات الجغرافية إبان عصر التنوير (القرنين السابع عشر والثامن عشر)، حين أُكتشفت مجتمعات مختلفة خارج القارة الأوربية، وازدادت المعلومات عنها واهتمامات المفكرين بها، مما أدى إلى تغيرات كبيرة في الاتجاهات الفلسفية عن طبيعة المجتمعات البشرية وثقافاتها وتطورها، وإلى تطور المعرفة الأنثروبولوجية واستقلالها عن الفلسفة. ثالثًا: مرحلة الوضع الأكاديمي المميز إبان عصر الانقلابين الصناعي والسياسي (القرن التاسع عشر)، حين أصبحت الأنثروبولوجيا تدرس في المؤسسات الأكاديمية، إلا أن أنثروبولوجيو هذه المرحلة تعرضوا لنقد شديد، إذ لم تكن مؤلفاتهم من تخصصاتهم، كما كانت دراساتهم تميل إلى السرد والوصف والصفة الأدبية الخالصة والنزعة التاريخية بإثارة المناقشات النظرية والتأملات الظنية حول أصول النظم الاجتماعية والثقافية. رابعًا: مرحلة التخصص، التي بدأت مع بداية القرن العشرين، حين أصبحت الأنثروبولوجيا مجال تخصص الكثيرين، الشيء الذي جعلها تعتمد على الدراسات الميدانية بدلًا عن أقوال الرحالة والمكتشفين ورجال الإدارة الاستعمارية غير المدربين كما كان سابقًا. وساعد في هذا التطور مؤخرًا الحركة الاستعمارية، التي كانت تعني اندفاع الدول الأوربية نحو العديد من مناطق العالم للسيطرة عليها سياسيًا واقتصاديًا. ولما كانت مجتمعات تلك المناطق تختلف في أساليب حياتها عن المجتمعات الأوربية، فقد كان من هموم المستعمر الرئيسية التوصل إلى معارف علمية دقيقة عنها تسهّل إدارتها وتضمن انصياعها لمتطلبات الاقتصاد الاستعماري (مسلَّم، 2001). فكانت المحصلة النهائية توفر الدعم ومادة الدراسة للأنثروبولوجين.

**خاتمة:**

سارت هذه الورقة في اتجاه معالجة ثلاثة موضوعات متداخلة ومترابطة: بيوغرافيا إيان كنيسون، وتطور الدرس الأنثروبولوجي في السودان، ومسألة التنمية في السودان. وتمت هذه المعالجة من زاوية المقالات الثلاثة، التي تم استعراضها وكتبها كنيسون حينما كان يعمل بجامعة الخرطوم. لقد كان التصور البنيوي، الذي يهتم بكشف البنيات الأعمق الداعمة لعمل المجتمعات أو الكامنة وراء الأشياء التي يفعلها البشر ويتفكرون فيها ويدركونها ويشعرون بها، واضحًا في آراء كنيسون حول قضايا التنمية والتغيير الاجتماعي في المجتمعات في هذه المقالات. هكذا لفت هو الانتباه إلى نوع مختلف من الأنثروبولوجيا: نوعًا موجهًا نحو تفسير كيفية ارتباط عناصر ثقافة مجتمع ما ومؤسساته ببعضها البعض، على افتراض أنها منظَّمة بحيث تشكِّل وحدة وظيفية موحَّدة. لقد عمل كنيسون على تحويل التركيز من الثقافة إلى العلاقات الاجتماعية، وهذا بدوره يشير إلى بعض القضايا النظرية التي أسسها، ومثلت موجهات لعدد من المهتمين بقضايا التنمية في السودان، كما يعكس تأثيره في الدرس الأنثروبولوجي السوداني المعاصر.

وفقًا لإشارات كنيسون، لقد حدثت مفارقة مهمة، هي: أن الأنثروبولوجيا، التي استخدمت سابقًا لضبط الشعوب المستعمرة والتحكم فيها، تحولت أغراضها لمساعدة هذه الشعوب ودعم استقلالها. وعبَّر عن هذا التحوُّل بأنهم شعروا كأجانب أن فترة ما بعد الاستقلال تتطلب منهم إعداد برامج تناسب احتياجات البلاد من الكوادر المؤهلة وخطط التنمية، وبالتالي أنشأوا مشروعًا متكاملًا ليعمل من خلاله قسم الأنثروبولوجيا الاجتماعية وعلم الاجتماع. مع تأسيسه هذا القسم ورئاسته له لمدة سبع سنوات متتالية، تأثرت اهتمامات كنيسون النظرية بسياسة إدارة كلية الدراسات الاقتصادية والاجتماعية بجامعة الخرطوم وتعليماتها لربط البرامج الأكاديمية والأبحاث بالتنمية وغيرها من قضايا المجتمع السوداني. كان ذلك تأثرًا بالجو العام والنقاش الدائر حول دور العلوم الاجتماعية في سودان ما بعد الاستقلال. لقد أصبح مهتمًا بقضية التنمية في السودان، وبدأ في تشجيع زملائه وطلبته في مجال الأنثروبولوجيا على المساهمة في معالجتها، كما بدأ في صياغة وجهة نظره الخاصة حول مساهماتهم وعلاقاتهم الممكنة مع الإداريين. وكان الانسجام سائدًا في القسم حول بعض قضايا التنمية بسبب شخصيته التوفيقية كونه رئيس القسم، ووجود خطة عمل وبرامج واضحة للعمل.

هكذا كانت تجربة كنيسون البحثية في السودان، والتي كانت وراء أحد اهتماماته النظرية الرئيسية: الدور المتوقع للأنثروبولوجيا، والعلاقة بين علمائها والإداريين، فيما يتعلق بالتنمية. لقد كان يفكر في الطريقة، التي يمكن أن يطوِّر علماء الأنثروبولوجيا بها خدماتهم المتصلة بالتخطيط التنموي، وموقفهم الفني والأخلاقي إزاء التنمية الاقتصادية للمجتمعات القبلية، ومساعدتهم للإداريين على فهم "العقلية المحلية" بشكل أفضل، ووجوب أن يظلوا مختلفين عن المخططين والإداريين. كذلك عمل كنيسون على نشر ثقافة التمسك بأخلاقيات البحث في التعامل مع المجتمعات المدروسة: الحرص على

الحفاظ على أسلوب حياتهم، والدفاع باستمرار عن مصالحهم، وعدم إفشاء خصوصياتهم. وتتضمن هذه الاعتبارات الأخلاقية كذلك عدم قيام الأنثروبولوجي بتطبيق معرفته في المجالات التنفيذية بطريقة مباشرة.

## قائمة المصادروالمراجع:

إبراهيم أحمد العدوي. (1979). *يقظة السودان*. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

سير جيمس روبرتسون. (1996). *السودان من الحكم البريطاني المباشر إلى فجر الاستقلال، تعريب مصطفى عابدين الخانجي*. بيروت: دار الجيل.

عبد الرحمن بدوي. (1984). *موسوعة الفلسفة، المجلد الأول*. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

عثمان محمد عثمان علي. (2013). *نظريات علم الاجتماع والأنثروبولوجيا*. الخرطوم: دار جامعة الخرطوم للطباعة والنشر والتعريب.

عدنان أحمد مسلَّم. (2001). *محاضرات في الأنثروبولوجيا*. الرياض: مكتبة العبيكان.

*Barnard, A. J. (2000). History and Theory in Anthropology. Cambridge, U.K.; New York: Cambridge University Press.*

*Brausch, G. (1962). The Role of Social Anthropology in the Economic Development of the Sudan. Sudan Society, vol. 1, 28-44.*

*Civil Secretary's Office, S. G. (1950, November 7th). Airmail no. CS/112.A.17. Durham University Library documents. Khartoum, Khartoum, Sudan: Durham University.*

*Civil Secretary's Office, S. G. (1952, February 16th). Airmail no. CS/112.A.17. Durham University Library documents. Khartoum, Khartoum, Sudan: University, Durham.*

*Cunnison, I. (1962). The Technical and Moral Position of the Anthropologist in Relation to the Economic Development of Tribal Societies. Sudan Society, vol. 1, 15-27.*

*Cunnison, I. (1964). Progress of Anthropological Research in the Sudan. Research in the Sudan, Proceedings of the XII Annual Conference of the Sudan Philosophical Society (pp. 144-51). Khartoum: the Sudan Philosophical Society.*

*Cunnison, I. (1977). Changing Relations of Anthropology and Administration in the Sudan. Sudan Journal of Development Research, vol. 1, No. 1, 1-25.*

*Cunnison, I. (2008, December 3rd ). Witness Statement, Abyie Boundary Dispute. Durham University Library documents. Durham, United Kingdom: Durham University.*

*Evans-Pritchard, E. E. (1962). Anthropological Research in the Southern Sudan. Sudan Society, vol. 1, 9-14.*

*(n.d.). Ian Cunnison, Timeline – Prepared for Residential Care Home. Durham University Library documents.*

*Khartoum, U. o. (1950, July 13). Memorandum of Agreement between the University of Khartoum and Ian George Cunnison. Durham University Library documents. Durham University , Durham, United Kigdom: Durham University.*

*Khartoum, U. o. (1965, July 18th). File No. UK/VCO/Personnel. Durham University Library documents. Khartoum, Khartoum, Sudan: Durham University.*

*Khartoum, U. o. (1966, March 22nd). File No. ASO/RH/CR/290-2. Durham University Library documents. Khartoum, Khartoum, Sudan: Durham University.*

*The 1st Register of Members. (1969). Durham University Library documents.*

*Vermeulen, H. F. (2005). Anthropology in Colonial Context. In J. V. Bremen, Anthropology and Colonialism in Asia and Oceania (pp. 13-39). Richmond, Surrey: Routledge Curzon.*